الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

---

١ — انتقال السلطة الى المماليك .

٢ — ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية .

---

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

١ — انتقال السلطة الى المماليك

اتفقت كلمة أمراء المماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجرة الدر مكانه[١]. فأخذت تتقرب من أرباب الدولة وتمنحهم الرتب والاقطاعات كما خفضت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة[٢]. على أن الناس على الرغم من ذلك قد كرهوا حكمها إذ لم تجر عادة المسلمين بأن يتقلد حكمهم امرأة[٣]. فخرج أهل سوريا عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب.

ولما علمت بذلك شجرة الدر آثرت المحافظة على كيان الدولة وأظهرت رغبتها فى التخلى عن الحكم. فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر وتفوض إليه أمور الدولة[٤]، فقبلت ذلك ونزلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن لبثت فى الحكم ثمانين يوما برهنت فيها على كفاءة ممتازة وحكمة نادرة فى تصريف الأمور وتدبير الملك[٥].

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٨٩

(٣) لما علم الخليفة المستنصر بالله العباسى بتولية شجرة الدر سلطنة مصر غضب على أهل مصر وكتب إليهم بأن يولوا عليهم رجلا منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له. المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨

(٤) Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 250

(٥) ابن إياس : ج ١ ص ٩٠

وقصارى القول فقد كانت شجرة الدر ذات ذكاء وقاد وشجاعة نادرة وشخصية ممتازة قل أن يوجد لها نظير . ولا عجب فى هذا فقد حنكتها التجارب من يوم أن اتصلت بزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما تخلت شجرة الدر عن العرش أقام أمراء المماليك عز الدين أيبك أتابك العسكر سلطانا على مصر ولقبوه بالمعز، غير أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن طالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبى معه فى السلطنة واتفقوا على توليـة الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر ست سنين[1] . وقد علل ابن واصل[2] رغبة هؤلاء الأمراء فى اشراك أحد الأيوبيين مع المعز أيبـك الى أنفتهم من الخضوع له ورغبتهـم فى التدخل فى شئون الدولة .

انتهز الملك الناصر صاحب الشام فرصة هذا الاضطراب الذى ساد مصر فى ذلك الوقت وخرج بعساكره من دمشق يريد الاستيلاء عليها . فلما ورد الخبر بذلك الى مصر اضطربت الدولة، وقبض المعز أيبك على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر وأعد العدّة لملاقاته حتى قدمت جيوشه الى مصر واشتبك الفريقان بالقرب من العباسة فى معركة هزم فيهـا المصريون أول الأمر ؛ ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن هاجموا الناصر وجيشه فولوا منهزمين نحو الشام[3] .

ازداد نفوذ المماليك البحرية على أثر هذا الانتصار الذى أحرزه المعز على جيوش الشام بفضل جنودهم الذين أبلوا بلاء حسنا فى صـدّ جيوش النـاصر ؛ فارتكبوا كثيرا من الفظائع مع أهل مصر . وفى ذلك يقول المقريزى[4] : "فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتـل ونهب وسبى بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر

(١) المقريزى : السلوك القسم الثانى ج ١ ص ٣٦٩

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٣٧٦ أ

(٣) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥

(٤) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : ج ٢ ص ٢٣٧

ما زادوا فى الفساد على ما فعله البحرية وكان كبراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشيدى ".

لم يكد المعز أيبك يفرغ من صدّ جيوش الناصر عن مصر حتى وصلت إليه الأخبار سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) بأن هولاكو سار من قره قورم (Karakarum) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار خلاصتها القضاء على الاسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد[1]. فانتهز المعز هذه الفرصة وأزال اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وقبض عليه وسجنه وانفرد بالسلطة دونه وأرهق الأهلين بجمع الأموال الكثيرة والمكوس التى لم تكن مقررة من قبل وعين الأمير سيف الدين قطز نائبا للسلطنة بمصر؛ ثم عقد صلحا مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام تقرر فيه أن يكون للمعز إلى نهر الأردن وللملك الناصر ما وراء ذلك[2].

ولما اطمأنت نفس المعز أيبك من ناحية بلاد الشام شرع فى تهدئة ثائرة العرب بالوجه البحرى والصعيد الذين اجتمعوا على شخص من ذرية على بن أبى طالب يسمى حصن الدين بن ثعلب؛ فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاى وغيره من الأمراء فاقتتل الفريقان بالقرب من بلبيس وتفرّق كثير من العرب عن حصن الدين، فولى منهزما؛ ثم سار المماليك لإخضاع عرب الغربية والمنوفية فهزموهم بناحية سخا وسنهور ولحق الشريف حصن الدين بمن بقى من أصحابه وبعث يطلب الأمان من الملك المعز فأمنه؛ غير أن المعز لم يلبث أن نقض الأمان عند ما سار حصن الدين إلى بلبيس إذ قبض عليه وأرسله إلى الإسكندرية وقتل أتباعه وبذلك تبدّد شمل العرب فى مصر[3].

(١) Browne, A Literary History of Persia, Vol. II. pp. 452-453.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٤ — ٣٨٥

(٣) المقريزى : نفس المرجع ص ٣٨٦ — ٣٨٨

ويرجع سبب هـذه الثورة إلى انتشار روح القومية بين العرب المقيمين بمصر الذين يرى كثير منهـم أن مصر عربية دينـا ولغة وعادات وأنه لا بد لهم من ملك عربى مستقل يحكمهم ؛ فغضبت نفوسهم وثارت حميتهم لإمارة الأتراك والمماليك عليهم . وليست هذه الروح جديدة فيهم بل لقد دب دبيبها منذ عهد الدولة الطولونية حين قامت الفتن والثورات على أيدى العرب فى مصر ضدّ الطولونيين والأتراك[1] .

لم يبق أمام المعز بعد ذلك إلا منافسه فارس الدين أقطاى وكان قـد استفحل أمره فى ذلك الوقت ؛ فرأى أن يتخلص منه ويشتت شمل من معه من الجنود وخاصة بعد أن طلب منه الإقامة بقلعة الجبل ، فاتفق مع طائفة من مماليكه المعزية[2] على قتله إذا مر بهـم ، فوثبوا عليه عند باب قاعة الأعمدة (بالقلعة) بسيوفهم فأذاقوه كأس المنون وأغلقت أبواب القلعة وشاع خبر قتله ، فاجتمع أنصاره وأعوانه من المماليك البحرية وأحاطوا بالقلعة فرمى إليهم المعز برأس أقطاى فسقط فى أيديهـم وانفضوا خائبين وأدركوا أن المكيدة لاحقة بهم[3] ، فاجتمع رؤساؤهم بيبرس وقلاوون الألفى وستقر الأشقر والأمير بيسرى وغيرهم وقرروا الخروج إلى البـلاد الشامية . وسرعان ما علم المعـز بنواياهم فأغلق دونهـم أبواب القاهرة ولكنهم أحرقوا باب القراطين[4] وخرجوا منه هاربين صوب مقصدهم واختفى غيرهم ممن لم يسايروهم . ولمـا تشتت شملهم استصفى المعز أملاكهم واسـترد ما كان لديهم من الأموال والذخائر وأعاد ما أخذه أقطاى إلى بيت المـال وأضاف أعمـال الاسكندرية إلى أعمـال السلطان وبذلك صفا له الجوّ وانفرد بتدبير المملكة[5] .

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. pp. 259, 261-262

(٢) كان المعز قد أهمل جانب المماليك البحرية واتخذ له مماليك غيرهم سموا بالمماليك المعزية .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٤) عرف هذا الباب بعد ذلك بالباب المحروق وهو باب القاهرة الشرقى Lane-Poole : Cairo, p. 129.

(٥) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٨ — ٣٩٢

خرج بيبرس ومعه أمراء المماليك قاصدين الشام ولما وصلوا غزة كاتبوا الناصر يوسف صاحب حلب يستأذنونه فى القدوم عليه فأذن لهم[1]؛ وعند ما وصلوا إليه قابلهم بالترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بعطفه ولين جانبه وأقطعهم البلاد الساحلية . ولما استقروا لديه أغروه بمحاربة مصر والاستيلاء عليها؛ فصادف كلامهم هوى فى نفسه فبادر بتجهيز جيش إلى القاهرة؛ وسرعان ما أعدّ سلطان مصر جيشه أيضا وغادر المدينة ليقطع الطريق على الجنود الشامية ويقاتلهم قبل أن يدخلوا بلاده .

التقى الجيشان عند قرية العباسة ولم يجر بينهما قتال ، بل دارت المفاوضات وتم الأمر بالصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب (أى ساحل الشام ومصر) وعلى ألا يؤذى الملك الناصر أحدا من المماليك البحرية[2] وعاد كل إلى بلده سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن المعز أيبك بعد انفراده بالسلطنة فلت زوجه شجرة الدر من شوكته ، ووقع بينهما التشاحن والتباغض وأثار غضبها ما كان من خطبته من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ فعملت على اغتياله وأرسلت إليه توهم أنها باقية على طاعته وقد رجعت عما كان يلاحظ عليها من غطرسة وشدّة . وكانت قد أعدّت خمسة من الخدّام وأمرتهم بقتله إذا ما أمكنتهم الفرص؛ فقام هؤلاء الخدّام بما أمروا به وقتلوه داخل الحمام (ربيع الأوّل سنة ٦٥٦ هـ) وأشاعوا أنه قد أغمى عليه . وفى الصباح أذيع قتله بين الناس فدفنه أمنه على مماليكه ثم قبضوا على شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضربنها بالنعال حتى ماتت فى ربيع الثانى من هذه السنة وألقيت جثتها فى أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها اليوم .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٢

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٨

ولى الأمراء مكان المعز أيبك ابنه عليا وعمره خمس عشرة سنة وكان القائم بتدبير المملكة اذ ذاك علم الدين سنجر الحلبي والوزير شرف الدين بن صاعد الفائزى. فلما تم الأمر لعلى بن أيبك الملقب بالملك المنصور نور الدين ولى سيف الدين قطز[1] نيابة السلطنة بمصر وقبض على وزيره شرف الدين واستولى على أمواله ؛ ثم ولى فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكية العسكر بدلا من علم الدين سنجر .

استمر قطز فى النيابة لابن أيبك وتولى قيادة الجيش لصد المماليك البحرية والمغيث على ما سيأتى — وكانوا قد حسنوا للمغيث أخذها لما علموا أن التتار على وشك مهاجمتها بعد استلائهم على الشام . وفى عهد على هذا كانت إغارة التتار على البلاد الشامية بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم واستولوا على حلب وغيرها من البلدان[2] .

لم يرض المماليك البحرية بهذا الصلح الذى عقد بين الملك الناصر والمعز أيبك، ونمى الى الناصر أنهم يريدون الفتك به فأجلاهم الى غزة ؛ وهناك كتبوا بالطاعة الى الملك المغيث صاحب الكرك، فأرسل اليهم الناصر عسكرا لمقاتلتهم فانتصر عليهم المماليك البحرية وهزموهم، ثم أعاد عسكر الناصر الكرة فانتصروا وطردوا البحرية الى البلقاء[3] ملتجئين الى المغيث فأنفق عليهم أموالا ضخمة وأطمعوه هو أيضا فى ملك مصر فجهزهم بالعدد والعدد[4] ، وساروا متجهين الى مصر وخرج الجيش المصرى يقوده سيف الدين قطز، والتقى الفريقان بالصالحية فانهزم المماليك البحرية ومن معهم وأسر منهم قلاوون الصالحى وبلبان الرشيدى وغيرهما ، ثم أطلق سراح قلاوون بعد أيام ولحق بأصحابه بالكرك[5] .

---

(١) كان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية . يقال انه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود وقد أسر فى حروب التتر وبيع بدمشق للمعز أيبك . ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ Enc. Isl. Kutus, s.v.

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٤ (٣) كورة من أعمال دمشق . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٢ و ١٩٣

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٦

أما عن موقف الملك الناصر فى ذلك الوقت فانه أنفذ ابنه الملك العزيز الى هولاكو يطلب منه النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فأجابه هولاكو الى ماطلب . غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق فى ذلك الوقت لما سمعوا بذلك ساروا الى الملك المغيث بالكرك وحببوا اليه أخذ مصر، فسار فى عساكره سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وقدم اليه بعض الأمراء الذين كاتبوه من مصر وتقدّم اليهم قطز فى عسكر مصر والتقى بهم فهزمهم وفرّ المغيث الى الكرك[1] . أما المماليك البحرية فانهم ذهبوا الى الطور[2] واجتمعوا بمن هناك من الأكراد الفارّين من التتار وصاهروهم . وقد أثار هذا الاجتماع مخاوف الناصر فجهز اليهم عسكرا من دمشق والتقى الفريقان بالطور فهزمت عساكر الناصر ؛ ثم عاود قتالهم وسار على رأس جيشه فخاف المماليك البحرية لقاءه وتركوا الأكراد وذهبوا الى بلاد الكرك، فأرسل الناصر الى المغيث يتوعده إن لم يسلم هؤلاء البحرية . وتردّدت الرسل بينهما وانتهى الأمر بأن اتفقا على أن يتسلم الناصر من المغيث طائفة المماليك البحرية وأن يبعد عن المغيث الشهرزورية[3] .

لما علم بذلك بيبرس هرب ومعه جماعة من البحرية الى الملك الناصر فأحسن اليهم، وقبض الملك المغيث على من بقى عنده من المماليك البحرية وبعث بهم الى الناصر فحبسهم بقلعة حلب[4] . وقد ظلوا بها الى أن استولى التتار عليها وأخذهم هولاكو مع من أسر الى بلاده[5] .

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٥ ؛ المقريزى : السلوك ص ٤١٠ و ٤١١

(٢) المقصود بها طور سيناء .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٤ ؛ والشهرزورية نسبة إلى شهرزور وهى إحدى جهات كردستان . وكان بتلك الجهة جماعة من الأكراد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها ، ففرّ الشهرزورية من وجه التتار إلى الشام ومصر . Enc. Isl. Art. shehrizur.

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٨

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٧٨

يتضح لنا مما تقدم كيف ازداد نفوذ المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس ، كما نرى من هذه المنازعات التى حدثت بينهم وبين المعز أيبك كيف أن السلطة فى مصر يتنازعها فريق من أمراء المماليك ، وكان لهذا أثره فى حالة مصر الداخلية فى ذلك الوقت فشغل المعز أيبك وابنه من بعده عن إصلاح مرافق البلاد بالقضاء على هذه المشاغبات التى أثارها المماليك البحرية . وان الناظر الى هذه المناقشة التى دارت بين علاء الدين سلطان السلاجقة الروم والأمير علم الدين سنجر الباشقردى على أثر الكتاب الذى أرسله المعز أيبك الى سلطان الروم عندما التجأ اليه فريق من المماليك فرارا من غدر المعز أيبك بهم ليقف على مبلغ العداء المستحكم بين المعز أيبك والمماليك البحرية . وفى ذلك يقول المعز فى كتابه الى سلطان الروم "البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم ، وإن استأمنتهم خافوا ، وإن استحلفتهم كذبوا ، وإن وثقت بهم غدروا ، فتحرز منهم على نفسك فإنهم غدّارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك" .

كان لهذا الكتاب أثره فى سلطان الروم ، فأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم : "يا أمراء ! ما لكم ولأستاذكم" ؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ قال : "الملك المعز صاحب مصر". فقال الباشقردى : "يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أ ، إنما هو خوشداشنا[1] ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا س وأحق بالمملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا وتشتتنا فى البلاد ونحن التجأنا اليك[2]" .

لما علم قطز بما فعله التتار بالمدن الشامية وأنهم على وشك الهجوم على مصر جمع أمراء دولته وقال لهم "لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك

(١) الخشداشية فى اصطلاح عصر المماليك بمصر الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة وتقابلها فى الفرنسية (Comarades) الدكتور زيادة .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٣

المنصور صبي لا يعرف تدبير المملكة " . والواقع أن الملك المنصور كان مستهترا بأمور الدولة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخلت أمه فى إدارة شئون البلاد فاضطربت الأمور وساعد ذلك قطز على الطمع فى الوصول إلى سلطنة مصر ، فانتهز فرصة خروج الأمراء للصيد وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م) . فلما علم بذلك الأمراء أنكروا عليه هذا العمل ، فاعتذر إليهم بقوله "إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدد فالأمر لكم . أقيموا فى السلطنة من شئتم "[1] .

٢ — ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية

ذكرنا أن المماليك البحرية فروا من المغيث حين رأوا منه عين الغدر بهم ووصل بعضهم إلى مصر . وكانت هجمات التتار على البلاد الشرقية متوالية فى ذلك الوقت كما كانوا يتنقلون بسرعة من بلد إلى آخر ، ذلك أن هولاكو على أثر سقوط بغداد فى يده سار إلى ديار بكر ونزل على آمد يريد حلب ، ثم زحف على حران واستولى عليها ، وأرسل ابنه سموط إلى الشام وعندما وصل إلى ظاهر حلب خرج اليه نائبها الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين من قبل بن أخيه الملك الناصر ، فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على المسلمين ودخل التتار حلب[2] .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف شروع التتار فى الاستيلاء على حلب كتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما نجدة ، وكان الأمراء متخوفين من غارات هولاكو ، فأشار أحدهم وهو الأمير زين الدين الحافظى بمداراته والدخول فى طاعته . وهنا نجد موقفا مشرفا لبيبرس

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٧ — ٤١٨

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠

إذ أنه ما كاد يسمع حديث هذا الأمير حتى انقض عليه وضربه وقال " أنتم سبب هلاك المسلمين " فشكاه الأمير إلى الملك الناصر . ولم يلبث المماليك بعد ذلك أن هجموا على الملك الناصر ففرّ إلى قلعة دمشق، ثم بادر إليه بعض الأمراء وأشاروا عليه بالخروج؛ فوافقهم على ما أرادوا وخرج إلى المعسكر[1] .

انتهز بيبرس هذه الفرصة وسار إلى غزة؛ وهناك راسل الملك المظفر قطز وأرسل اليه علاء الدين طيبرس الوزيرى يطلب منه الأمان، فكتب اليه قطز بأن يفد اليه ووعده بالوعود الجميلة[2] .

وصل بيبرس مصر فى ربيع الأوّل سنة ٦٥٨ هـ . فركب قطز للقائه وأنزله بدار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها[3] وجعله قائد جيشه . وسنرى ما فعله هذا القائد مع سيده الذى أعتقه من مخالب الموت وأغدق عليه نعمه .

فى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) أرسل هولاكو إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم اليه والإذعان له . وقبل أن نتكلم عما فعله سلطان مصر إزاء رسل هولاكو نذكر هنا خطاب هذا الطاغية لنرى منه كيف كان تجبر هؤلاء المغيرين واعتزازهم بقوّتهم ووفرة عددهم وزهوهم بأنفسهم حتى احتقروا من عداهم من الأمم وظنوا أنهم مانعتهم أسلحتهم وجيوشهم ولم يقدّروا هزيمتهم فى أية معركة لهم وغاب عنهم أن الدهر قلب[4] . واليك نص كتاب هولاكو كما ذكره كل من القلقشندى والمقريزى[5] : " من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٩ ــ ٤٢٠

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠ (٣) ابن واصل : ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٦ (٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣

(٥) السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٧ ــ ٤٢٨

هربوا من سيوفنا إلى هـذا الاقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسـلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولهـا من الأعمال، أنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا الينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن مانرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنـا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأى أرض تؤويكم، وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فمـا لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص . لخيولنـا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لاتمنع والعساكر لقتالنا لاتنفع ودعاؤكم علينا لايسمع ... إلى أن يقول " أسرعوا بردّ الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا وتدهون منـا بأعظم داهيـة ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فمـا بقى لنـا مقصد سواكم . والسـلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى " .

لمـا وصل هذا الكتاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم فى الأمر — وقد أحدق بهم الخطر وتهدّدهم هؤلاء التتار؛ فتردّد بعض الأمراء أوّل الأمر فى الخروج لملاقاة هـذا العدوّ العنيد ومنازلته وذلك خشية منه ؛ وقرّ رأى قطز على قتل الرسل فقتلوا وعلقت رءوسهم على باب زويلة[1] .

ولمـا كان يوم الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) خرج قطز بعسكر مصر ومن انضم اليهم من عسكر الشام والعـرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبـل

(١) المقـريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 262.

قاصدين الصالحية، ولما بلغوها طلب قطز الأمراء وأمرهم بالرحيل فامتنعوا . فقال لهم "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين"[1] .

كان لهذا القول أثر فى نفوس أمراء المماليك الذين امتنعوا عن الرحيل من مصر لملاقاة التتار، فلم يكد قطز ينتهى من حديثه حتى اتفقوا جميعا على مهاجمة هذا العدو وإيقافه عند حدّه .

لم يدخل قطز فى مخابرات مع العدو بشأن إبرام الصلح خشية أن ينضم ضعاف القلوب من أمرائه إلى المغول، ولكنه أراد أن يقيم الدليل لهم بأنه يستطيع أن يقود جيشا قويا متحدا إلى الحدود . وقد تبددت سحب الإشاعات وزادت الحماسة حينما هزم المماليك بقيادة بيبرس حامية المغول فى غزة؛ ومن ثم واصل الجيش المصرى السير محاذيا الساحل نحو الشمال وضمن حياد الفرنجة فى عكاء، ثم يمم السير لملاقاة المغول فقابلوهم قريبا من بيسان فى المكان المعروف «بعين جالوت»[2] حيث مزق الجيش المغولى شمل قوى المصريين؛ على أن هرب المصريين قد أدّى إلى انتصارهم بسبب تعقب المغول للفالة منهم فى شراذم متفرقة مما سهل على جيش المماليك القضاء عليهم . وقد وقع القائد المغولى « كتبغا » صريعا فى حومة القتال وارتد جيشه الذى انضمت اليه حامية دمشق التى ثار أهلوها وذبحوا المسيحيين لتآمرهم على زوال الإسلام .

أعاد قطز الأمن الى نصابه فى جميع المدن المخربة ، كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحماه على أن يدفعوا له الجزية، واقيمت الخطبة له فى البلاد التى بين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩

(٢) بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان

حلب والفرات . وعند عودته من هذه المعركة التى نجت مصر وأعادت بلاد الشام وقع فريسة لذلك الحسد الذى طالما تعرّض له قوّاد الجيش المنتصرون . وكان بيبرس أقدر هؤلاء القوّاد وقد حال قطز دون تحقيق رغبته فى ولاية[1] حلب — وكان قد وعده بها — إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاها لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ،[2] فكان ذلك الخلف مثيرا لمكامن الضغينة والحقد اللذين كمنا فى نفوس بيبرس و إخوانه على قطز منذ قتل الفارس أقطاى[3] ؛ فأضمروا السوء له وحدّث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان[4] .

على أن قطز قد أخطأ حين رفض أن يمنح بيبرس ولاية حلب ؛ فانه لو كان قد منحه إياها لتمكن من إبعاد أكبر منافس له فى سلطنة مصر . لكنه لم يتريث فى هذا الأمر فأخلف وعده واعتقد أنه بعمله هذا يضعف من شأن بيبرس . غير أنه نسى أن المركز الذى كان يتمتع به بيبرس فى ذلك الوقت وخاصة بعد انتصاره على المغول و إخراجهم من دمشق وحلب وانتزاعه أكبر إمارات الشام من أيدى بنى أيوب لايقلل من شأنه حرمانه من احدى الولايات وخاصة اذا علمنا أنه كان على رأس فريق من المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح السياسة المصرية . وكان قطز نفسه يخشى بأسهم وقد اضطرّ أخيرا الى مصافاتهم والاعتماد عليهم فى صدّ ذلك العدوّ الخطير الذى اجتاح البلاد الاسلامية وقضى على الخلافة العباسية . فهذه السياسة التى اتبعها هذا السلطان إزاء قائد جيشه أودت به فى هوّة سحيقة ؛ وكان الأجدر به أن يقرّب اليه المماليك البحرية و يقطعهم الاقطاعات كما أقطع الأمراء المعزية و بذلك يتقى شرهم ويأمن جانبهم .

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.262.

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٨٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٥

ولا ضير اذا قلنا إن هؤلاء المماليك البحرية — وعلى رأسهم بيبرس — نسوا ما قابلهم به قطز من الحفاوة والاكرام وإنزاله لهم منزلة رفيعة أيام كانوا ثائرين بعد فرارهم الى الشام . نعم ! لقد نسوا هذا ولم يذكروا أن قطز هو الذى وهبهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيف ، وأجمعوا أمرهم على اغتياله .

تمت المؤامرة بين المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس على أن يستريحوا من قطز وترقبوه وهو فى طريقه الى مصر حتى اذا ما قارب الصالحية انشغل بالصيد ؛ فلما فرغ من ذلك طلب منه بيبرس بعض أسرى المغول فأنعم عليه قطز بامرأة من سبى التتار ، فما كان من بيبرس إلا أن تظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان وانقض عليه بالسيف وتبعه الآخرون بسيوفهم فأجهزوا عليه ؛ وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل العظيم وثأر أعداؤه لأنفسهم وبعد أن قتلوه تركوه ملقى على الأرض وعادوا شاهرين سيوفهم الى أن وصلوا الى عرش الملك فجلس عليه بيبرس وأخذ المملكة بالقوة (٢) على ما سيأتى .

---

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٧